

التحرير والتنوير

استئناف أمر النبي A بأن يقوله للمشركين . وافتتاحه ب (قل) لقصد توجه الأسماع إليه . ومناسبة وقوعه عقب ما تقدم أن الكلام المتقدم حكى تكذيبهم بالقرآن وادعاءهم أنه مفترى وأنه ليس بحق ثم إبطال أن يكون القرآن مفترى على الله لأنه اشتمل على تفصيل الشريعة وتصديق الكتب السالفة ولأنه أعجز مكذبيه عن معارضته . فلما استوفى ذلك بأوضح حجة وبانت لقاصد الاهتداء المحجة لا جرم دالت النوبة إلى إظهار خطأ عقولهم واختلال تكذيبهم فإنه بعد أن كان تكذيبا بما لم يحيطوا بعلمه فقد ارتبكوا في دينهم بما يلزمهم منه مماثلة الحالة التي أنكروها فإنهم قد وضعوا ديننا فجعلوا بعض أرزاقهم حلالا لهم وبعضها حراما عليهم فإن كان ذلك حقا بزعمهم فمن الذي أبلغهم تلك الشرائع عن الله ولماذا تقبلوها عن شرعها لهم ولم يكذبوه وهم لا يستطيعون أن يلتزموا ذلك وإن كان ذلك من تلقاء أنفسهم فقد افترى على الله فلزمهم ما ألصقوه بالنبي A فعلق بهم وبرأ الله منه رسوله فهذا الاستدلال من الطريق المسمى بالقلب في علم الجدل .

ثم إن اختيار الاستدلال عليهم بشيء من تشريعهم في خصوص أرزاقهم يزيد هذا الاستدلال مناسبة بآخر الكلام الذي قبله ليظهر ما فيه من حسن التخلص إليه وذلك أن آخر الكلام المتقدم جملة (هو خير مما يجمعون) أي من أموالهم . وتلك الأموال هي التي رزقهم الله إياها فجعلوا منها حلالا ومنها حراما وكفروا نعمة الله إذ حرموا على أنفسهم من طيبات ما أعطاهم ربهم وحسبهم بذلك شناعة بهم ملصقة وأبوابا من الخير في وجوههم مغلقة . والاستفهام في (رأيتم) (آآ) أذن لكم أم على الله تفترون) تقريرى باعتبار إلزامهم بأحد الأمرين : إما أن يكون الله أذن لهم أو أن يكونوا مفترين على الله وقد شيب التقرير في ذلك بالإنكار على الوجهين .

والرؤية علمية (وما أنزل الله لكم من رزق) هو المفعول الأول ل (رأيتم) وجملة (فجعلتم منه) الخ معطوفة على صلة الموصول بفاء التفریع أي الذي أنزل الله لكم فجعلتم منه . والاستفهام في (آآ) أذن لكم أم على الله تفترون) مفعول ثان ل (رأيتم) ورابط الجملة بالمفعول محذوف تقديره : أذنكم بذلك دل عليه قوله (فجعلتم منه حراما وحلالا) . و (قل) الثاني تأكيد ل (قل) الأول معترض بين جملة الاستفهام الأولى وجملة الاستفهام الثانية لزيادة إشراف الأسماع عليه . وهي معادلة بهمة الاستفهام لأنها بين الجملتين المعمولتين لفعل (رأيتم) . وفعل الرؤية معلق على العمل في المفعول الثاني لأن الأصح جواز التعليق عن المفعول الثاني . وزعم الرضي أن الرؤية بصرية . وقد بسط القول في ذلك

عند قوله (أفرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه) الآية في سورة الواقعة .
و (أم) متصلة وهي معادلة لهمزة الاستفهام لأن الاستفهام عن أحد الأمرين .
والرزق : ما ينتفع به . وتقدم في قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) في سورة البقرة
وفي قوله (أو مما رزقكم الله) في الأعراف .
وعبر عن إعطاء الرزق بالإنزال لأن معظم أموالهم كانت الثمار والأعشاب والحبوب وكلها من
آثار المطر الذي هو نازل من السحاب بتكوين الله فأسند إنزاله إلى الله بهذا الاعتبار ومعظم
أموالهم الأنعام وحياتها من العشب والكأ وهي من أثر المطر قال تعالى (فلينظر الإنسان
إلى طعامه إنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا
وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم) . وقال : (وفي السماء
رزقكم) أي سبب رزقكم وهو المطر . وقد عرف العرب بأنهم بنو ماء السماء . وهو على
المجاز في كلمة (بني) لأن الابن يطلق مجازا على الملازم للشيء . وقد عبر عن إعطاء
الأنعام بالإنزال في قوله (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) بهذا الاعتبار .
والمجعول حراما هو ما حكى الله بعضه عنهم في قوله (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها
إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها) وقوله (وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة
لذكورنا ومحرم على أزواجنا) في سورة الأنعام .